فى سورة الأنعام

للأستاذ العلامة الشيخ طنطاوى جوهرى

الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الأصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم . وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون . وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء ، فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »

التفسير اللفظى

يقول الله إن الله يفلق الذرة والقمح والشعير والأرز وهذا هو الحب، ويفلق النوى، جمع نواة، وهى حفد الحب كنوى الرطب والمشمش والخوخ وهكذا النطفة والبيضة ؛ ومتى فلق هذه الأنواع ، خرج منها نبات القمح والشعير والأرز وأشجار النخيل والمشمش والخوخ والإنسان والطائر وخروج النبات والشجر من الحب والنوى ، والإنسان والطائر عبارة عن حياة ، فالنبات والشجر أحياء خرجت من الأموات لأن النامى حى وغير النامى ظاهر كالميت لا حس به ولا حركة فيما يظهر للعيون ، كما يخرج المؤمن من الكافر والذكى من البليد والصالح من الطالح ، وهكذا يخرج الحب والنوى والكافر والفاسق والبليد من النبات والنخل والمؤمن والصالح هذا هو قوله تعالى : « إن الله فالق الحب والنوى » المفسر بقوله « يخرج الحى من الميت » ثم عطف على فالق قوله « ومخرج الميت من الحى ذلكم » الحى الميت « الله » الذى يستحق العبادة « فأنى تؤفكون » تصرفون عنه . واعلم أن الناس لا يرون من الحيوان إلا قليلا فان ملايين من الحيوان تعيش فى نقطة صغيرة من الماء يملأ برأس

الأبرة مثلا، وتنمو وتتكاثر وتموت كما يعيش حيوان البر فى القفار وحيوان الماء فى البحار، وهى تتقاتل وتتحارب وتفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح، لايخلو منها مستنقع وتصعد فى البخار الذى يتصاعد من الماء بحرارة الشمس ، وتطير فى الجو مع الهباء ثم تعيش وتكثر أينما نزلت ووافقتها الرطوبة والحرارة،وهذه الحيوانات مع صغرها تتحجر وتصير منها طبقات متسعة من (الطباشير) فى الأرض وتربة طرابلس التى يصقل بها مؤلفة منها،وكل حيوان منها فى التربة يساوى $\frac{١}{١٨٧٠٠٠٠٠٠}$ من الفسحة ، والطباشير مؤلف من أصداف غاية فى الدقة كذلك،ومعلوم أن لكل حيوان منها معدة والطعام يدور من أنبية متعددة فى جسمه، وطعامها مؤلف من دقائق سائلة وجامدة مثل الانسان والحيوان ، ولا جرم أن هذه الدقائق أصغر من الحيوان المذكور،فدقة الحيوان ودقة ما يأكله تحير العقول . وقد جاء نبأ عن هذه الحيوانات فى ١٧ من أبريل سنة ١٩٣٤ بالصحف المصرية . ذلك أن حيوانات دقيقة كهذه ظهر فيها نوعان فى أمريكا :نوع منها يأكل الأسلاك المعدنية ،ونوع هو دود يهدم قناة (بناما) ويسمى (الدودة الطامة) وبالنوع الأول عطل خمس عدد أسلاك التلفون فى أمريكا،والنوع الثانى يحفر أنفاقا حقيقية تحت الأرض ، وقد أحدث بقناة (بناما) ضررا يقدر بالملايين، والدودة الأحدة تلد مليون دودة فى العام . ولما كان النبات والشجر من نتائج الأنوار السماوية والحرارة الجوية ، أتبع الكلام فيها بذكر سببيها،وأبان أنه شق عمود الصبح عن سواد الليل فتميز بنوره عن ظلمته معترضا فى الأفق الشرقى ، والأصباح فى الأصل مصدر أصبح إذا دخل فى الصباح سمى به الصبح،ويصح أن يقال(فالق الأصباح)أى خالقه، يقول كما شق النواة والحبة والبيضة والنطفة فانفلقت وأخرج منها تلك الأحياء ،شق الظلمة فأخرج منها عمود الصباح فتشابه العالم العلوى والسفلى كلاهما فيه العجب،نور اشتق من الظلام وأحياء من الأموات — ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت — فتشابه وتشاكل الأمر ، ترى النور يهر فى السماء، والحى ظهر فى الأرض ، هذا من الجماد وذاك من الظلام .ثم أكمل الكلام على العلويات فقال : (وجاعل الليل سكنا) يسكن الناس والحيوان فيه من التعب الذى لاقوه فى النهار أفلا يتحركون ،وعطف عليه قوله: « والشمس والقمر حسبانا » مصدر حسب بالفتح، كما أن الحسبان مصدر حسب بالكسر فيهما أى على أدوار مختلفة،تحسب بهما الأوقات ،وبهذا تم الكلام على الأحياء والأموات فى الأرض والنور والظلمة فى السماء،(ذلك)أى التسيير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) القاهر فوق عباده بحدث سيرها على وجه مخصوص ، (العليم) بتدبيره وكيف رأى أن المصلحة فى هذه الدورات طولا وقصرا وظلمة وإضاءة ، ثم هو قاهر ومع هذا القهر لا يعمل إلا لحكمة كما فى قوله: « وهو القاهر فوق عباده »وهو الحكيم فى هذا

القهر العليم أنه هو الأنفع لخلقه ،ياعجبا لهذه الموافقات البديعة .!!

ثم أخذ يشرح بقية الشموس المتسرقة التي تسمى عندنا نجوما فقال : «وهو الذي جعل» أي خلق(لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر) أي في المسالك والطرق المشتبهات في البر والبحر إلى حيث تريدون،فترصدون تلك النجوم كالنجمة القطبية التي هي كأنها ثابتة لا تتزحزح من مكانها،وهكذا النجوم الأخرى والبوصلة التي اشتملت على الإبرة المغناطيسية التي كسبت المغناطيس بالطرق المعروفة عندكم، تقوم مقام النجمة القطبية إذا أظلم الجو بسحاب أو غيره،فأنها تتجه إلى الجنوب والشمال مع بعض إنحراف يتغير بقوانين مخصوصة، منها تعرفون الطرق والمسالك،فالهداية في البر والهداية في البحر إنما تكون بالنجوم أو بما يقوم مقامها .

وذلك كله بحساب ولقد جعلت الدول الغربية كانكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا ،معاهد خاصة لتعليم حساب هذه الكواكب،حتى يعرف الربان في وسط اللجج البحرية وظلمات الليالي وفي الطرق المشتبهات النجوم الظاهرة وبروجها ومنازلها فيرصدها ويهتدي إلى سواء السبيل

ولما كان الأمر يعوزه علم وحكمة قال : « قد فصلنا الآيات» أي بيناها وأظهرناها (لقوم يعلمون) فهؤلاء هم الذين ينتفعون بما فصلناه،لأنهم به ينتفعون ، وياليت شعري كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقتسمون البحار والطرق البحرية،ويختصون بعلم النجوم ،ويحرم المسلمون من ذلك . كل هذا لأنهم جهلوا دينهم جهلا تاما إلا ظواهر العبادات . اللهم إني أبرأ إليك من الكسلان وأنت أحكم الحاكمين، فقد نصحت لهم جهدي وإني ذاهب إليك وقد فعلت ما في طاقتي بنشر الكتب وتأليف مثل هذا القول. أقول هذا وأنا موقن أن الله سينزل غضبه على من يكتم العلم بل على من يقرأ بعض هذا القول ولا ينصح المسلمين بالبحث في العلوم كلها ولا ينبههم الى إخطر الدائم . ولما أتم الكلام على العلويات التي ذكرها كالسبب للسفليات أي لأحياء النبات والشجر والطير والانسان أخذ يتم الكلام على علم الحياة بعد الفراغ من فهم مصدرها وسببها فشرح خلق الانسان وخلق النبات شرحا لقوله « يخرج الحي من الميت» ولم يشرح إخراج الميت من الحي لأن المقام مقام ظهور وحياة، لا مقام موت وخفاء وإظهار جلال القدرة وجمال الحكمة وعجائب الحياة وقدم الانسان لأنه أكمل والحيوان بعده فقال: (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) وهذه تقدمت في أول« النساء» فلكم استقرار في الأصلاب واستيداع في الأرحام . ولما كان خلق الجنين في بطن أمه من أعجب العجائب كما في أول سورة آل عمران يحتاج إلى فكر دقيق يعبر عنه بالفقه،قال : قد فصلنا الآيات لقوم

يفقهون . وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرج به ـ بالماء ـ « نبات كل شىء » أى نبت كل صنف من النبات ، وهى مع اختلافها تسقى بماء واحد وتعيش فى هواء واحد ، وبعضها أفضل من بعض فى الأكل « فأخرجنا » منه ـ من النبات ـ « خضراء » : أى شيئا أخضر يقال أخضر وخضر كما يقال أعور وعور « نخرج منه » من الخضر « حبا متراكبا » وهو السنبل « كالمطر » بضم فسكون المسمى بالكوز فى الذرة وكسنبل القمح « ومن النخل من طلعها قنوان دانية » قنوان مبتدأ خبره من النخل ومن طلعها بدل منه ، يقول : وقنوان دانية أى قريبة من المتناول كائنة من طلع النخل وقوله : « وجنات من أعناب » عطف على ـ نبات كل شىء ـ قوله « والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه » حال من الزيتون والرمان أى بعض ذلك متشابه وبعضه غير متشابه فى الطعم واللون والقدر والهيئة ، وترى ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرها مختلف (انظروا إلى ثمره) جمع ثمرة (إذا أثمر) أى إذا أخرج ثمره كيف يختلف زهره ولونه وأوقات طواف الحشرات على الزهرات ، وكيف يختلف نوع النبات باختلاف الأزهار وكيف جاء العلم الحديث فجعل مدار علم النبات على أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وكانت هذه أهم ما قام به العلم الحديث فى النبات بحيث كان المدار فى تفضيل أنواع النبات وأجناسه وفصائله على هذه المسألة ، وتعجب كيف غفل المسلمون عن هذا العلم وكيف يقول الله — انظروا إلى ثمره إذا أثمر « وينعه » أى نضجه وإدراكه ، والينع فى الأصل مصدر ثم نعتت به الثمرة إذا أدركت ، وقيل ينع جمع يانع كتاجر وتجر ، وفى قراءة — وينعه — بضم الياء وهى لغة فيه (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) والآيات أى العلامات للمؤمنين فى هذا المقام لا حصر لها ، فهى علم النبات وما كشفه الكاشفون وما درسه الدارسون والمسلمون هم الناشئون .

اللهم إنى موقن أن الإسلام سيكون فى مستقبل الزمان ، فأما اليوم فأنا أرى ظواهر وقشور فأما الجهل فهو ضارب أطنابه اليوم فى بلاد الإسلام وعسى أن أمثال هذه الآراء فى الأمم الإسلامية تكون من الأسباب التى وضعها الله فى بلاد الشرق ليخرج بها إصباح الإسلام ويفلق بنوره ظلمة الجهالة الحالكة ، فنقول فالق إصباح الهدى والنور عن ظلمة الجهل والغفلة كما فلق عمود الصبح وخلصه من ظلمة الليل ، وكما أخرج الحى من الميت . اللهم إنك تخرج العالم من الجاهل ، والحى من الميت ، فأخرج من هذا الجيل الإسلامى الناشئ جيلا مستيقظا بل إن فى الآية دلالة على ما أقول فان الظلام بعده النور والموت بعده الحياة فهكذا الإسلام اليوم فى نوم عميق وقد آن أوان ارتقائه وأقبل يوم إسعاده .

طنطاوى جوهرى